ASJP
Algerian Scientific Journal Platform
دراسات معاصرة
Contemporary Studies
مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة المركز الجامعي –تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-988 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297

المجلد: 05/ العدد: 01 (2021)، ص.ص. 283/303

دلالات المدينة في شعر منيرة سعدة خلخال

The significance of the city in the poetry of Munira Saada Khalkhal

د.منى بشلم
m.bechlem@gmail.com
المدرسة العليا للأساتذة الكاتبة آسيا جبار – قسنطينة
(الجزائر)

تاريخ الاستلام 2021/03/09 تاريخ القبول: 2021/05/20 تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص:

يتناول البحث ثيمة المدينة في شعر منيرة سعدة خلخال و المدينة من الموضوعات الهامة التي اتخذت صورا متعددة في السرد و الشعر ليس عند الكتاب الجزائريين فقط بل عند الكتاب العالميين أيضا، و تطورت دلالاتها بتطور المدينة نفسها و ما توفره للإنسان، والبحث يتغيا البحث في نوع المدن التي صورت الشاعرة، أهي متخيلة أم واقعية، وما الدلالات المرتبطة بالمدينة عند الشاعرة، مستعينا بما توفره الموضوعاتية الإحصائية من إجراءات تمكن من تجميع تصور عن مدينة منيرة سعدة خلخال، وما يتفرع عنها من موضوعات فرعية.

فكان أن ارتبطت المدينة عند الشاعرة بعدد من الموضوعات الفرعية أهمها الحب ، الرحيل، الخوف، الموت، غير أن أهم ما يميز مدينة الشاعرة أنها تجسد مشاعرها الأنثوية، بمنيرة تكتب بجسد المدينة لا بجسد الأنثى.

كلمات مفتاحية:المدينة؛دلالة؛ثيمة؛ موضوع فرعي؛ الغربة؛ فضاء،منيرة سعدة خلخال

Abstract:

المنارة للاستشارات
ww

The city is one of the important topics that took many forms in narration and poetry. We aim to research the type of cities that portrayed the poet Munira Saada Khalkhal, are they imagined or real, and what are the connotations associated with the city among the poet.

The city was associated with a number of sub-topics, the most important of them are love, departure, fear, and death. However, the most important characteristic of the poet's city is that it embodies her feminine feelings, Munira writes with the body of the city not with the female body.

Keywords:

City; signification; theme Subtopic; space, Alienation; Mounira Saada Khalkhal

1.المقدمة

يحتل المكان في المتون الشعرية المعاصرة مكانة هامة، أيا كان نوعه، و المدينة واحدة من الموضوعات المكانية التي يرسم من خلالها الشاعر بيئته مرتكزا إلى معالم مرجعية أو حتى لأفكار مثالية، أقرب إلى الحلم منها إلى الفلسفة،أو يتخذها مطية لتمرير مواقف أو مشاعر أو حتى إيديولوجيا معينة،لذا تتعدد دلالاتها، مما يفرض على القارئ معاملة النص كقيمة موضوعية، ومن حيث هو صورة عفوية و بنية صغرى لبنية كبرى هي العالم بكل تجلياته[1] ذلك أن ثيمة المدينة و ما يرتبط بها من دلالات اختلفت زمانيا بشكل مطرد مع تطور المدينة ذاتها، ما يجعلنا نفتح السؤال حول الدلالات التي ارتبطت بالمدينة الجزائرية ، و كيف صورها الشعر ، و الشعر النسوي خاصة ، و هل انفتحت الأنثى الشاعرة على هذه الثيمة رغم ما تعانيه الأنثى الجزائرية من ابعاد عن أغلب الأفضية المدينية، فماذا يمكن أن تصور الأنثى الشاعرة من المدينة، و كيف ستصورها، و ذلك للكشف عن علاقة الشاعرة بفضائها المديني، و الدلالات التي ترتبط بالمدينة عند الأنثى، متخذين من بعض إجراءات الموضوعاتية الإحصائية سبيلا لمعاينة ثيمة المدينة عند الشاعرة القسنطينية منيرة سعدة خلخال ، التي

المنارة للاستشارات

ww

تناول شعرها عدد من الباحثين الجزائريين منهم الدكتور يوسف وغليسي في مؤلفه خطاب التأنيث، و الدكتور عز الدين جلاوجي في مقاله التراث و مصادره و أشكال استلهاماته في الشعر النسوي المعاصر بالجزائر، و د.حسن تليلاني في مقاله المدينة في الشعر النسوي الجزائري الذي خص تجربة الشاعرة بالدراسة متناولا علاقة المدينة بالبناء الشعري ، و لغة الشاعرة ، وكذا علاقة المدينة ببعض الوقائع التاريخية ، خالصا إلى أن حداثة طرح منيرة سعدة خلخال هو ما دفعها للتخلي عن الشعر العمودي و الإتجاه صوب القصيدة النثرية ، بينما نروم التدقيق في علاقة الأنثى كلغة و جسد بالمدينة ، والدلالات التي تتخذ هذه الأخيرة حين تصاغ شعرا أنثويا.

2.دلالات المدينة في الشعر:

غير أن التجليات الشعرية للمدينة لا تقتصر على الشعر المعاصر، بل على العكس تماما فقد ظهرت المدينة في أقدم المدونات الشعرية، لا يمكن القفز عليها و نحن نفتش في هذه الوحدة عند منيرة سعدة خلخال، فبالمعرفة المتعلقة بالوحدة يتجلى تفرد هذه التجربة في تعاملها و هذه الموضوعة؛ فتبرز ملامح الإبداع ونقاط تقاطعها مع تجارب شعرية أخرى ، من أجل ذلك نقتطف أهم المحطات التي قطعت المدينة على خط الشعر،ونبدؤها من البداية ، تحديدا من أشعار الإغريق الذين تغنوا بها، فكانت مدينتهم الأثيرة ذات« وحدة حضارية متكاملة ... موضوعا أثيرا لدى شعرائهم، ف "الشاعر الإغريقي لم يجد موضوعا أشدّ وقعا في النفس من رؤية احتراق مدينة أو الوقوف على أطلالها»[2] مثلت ذاتً يتغنون بها و يبكون خرابها،و على رأسهم هوميروس الذي نقل ما تعرضت له بعض المدن من حرائق وخراب. غير أنهم لم يقتصروا على هذا الافتتان بها ، بل وصفوها في جانبها السلبي حين تحولت إلى تكدسات للأحياء والتجمعات البشرية، و طغى عليها سوء خلق الجواري.

غير بعيد عن هذه الصورة نجد المدينة في الفكر المسيحي في العصور الوسطى ترتبط بالقدسي فهي عند القديس أغسطيوس "دير الرب" اكتسبت جلالا و قدسية،لجمعها بين الكنائس الدينية، و الجامعات العلمية، لتنزاح عن هذه الصورة الجليلة، في القرن التاسع

المنارة للاستشارات

عشر، رغم احتلالها مساحة كبرى من جسد الشعر في هذا العصر،لترتبط بالضياع و الاغتراب، و العزلة و الجدب الروحي«المدينة البودليرية هي موطن المتناقضات، والفوضى و القبح و البؤس و الضوضاء و البشاعة، إنها الموطن الذي فيه يلاقي اله الحب تحولا قاسيا ...و يتجلى تحت شعار الدعارة »[3] و هي النظرة التي أثرت في الشعراء المحدثين فتأرجحوا بين موافقته والاختلاف معه.

أما ويتمان الشاعر الأمريكي «فقد وقف موقفا مغايرا من المدينة،بحيث منحها ثقته، و مجد ما فيها من عمال و أزقة، و زحمة خانقة،إنه كان نبرة معاصرة راضية»[4] تحاول النأي بالمدينة عما ألحقه بها بودلير، فهي لم تعد "متاهة البذخ وجهنم اللذات" بل يصورها صناعية تجمع الأنشطة الإنسانية.

ساقت نهاية القرن فقد ديوانا يجمع بين المدينتين و يتجاوزهما، بما يقتضيه منطق التطور،إنه "نتف العشب في المدن ذات الأذرع المميتة " لصاحبه "فيرهاردن" حيث يسقط عن المدينة اسمها و صفاتها وتقاليدها، لترتبط بفرع جديد لم نصادفه قبلا،إنه الاعتداء على العالم و افتراسها إياه، تشع منها الغربة ، الوحدة والغم،وتمتد عدائيتها إلى ما يجاورها من البراري و القرى فتقتل مظاهر البهجة بها. هي مرة أخرى مدينة صناعية لكن بحس أعمق هذه المرة فأدواتها ليست امتدادا طبيعيا للجسم، وماديتها تقتل إنسانية الإنسان، و تفرغ عاطفة الحب من كل مضامينها، على عكس هذا التصور ، و في موقف حماسي مشع بالأمل ، تغدو المدينة عنده مطرحا لألوهية مبهمة، و هي تتفرع لتلامس موضوعا آخر هو أعمالها العظيمة التي تحقق الحاجات الأساسية لإنسان يعيش هذا العصر.هكذا تستمر المدينة موضوعا أساسيا عنده، فتتأرجح بين التأليه و الانحدار إلى حضيض الحيوانية.

يمتد تأثير هؤلاء الشعراء الثلاث على شعراء آخرين، فيفرز موقفين متناقضين،حيث تبنى البعض فكرة العصرنة، وانتصر للمدينة الصناعية ، بينما ثار عليها آخرون و أخذوا يفضحون شرورها، من أمثال جون وين، رومانن، و رامبو في أمريكا ، و التعبيريون بألمانيا الذين ربطوها بالعظمة القاتلة ، و الخراب الشامل، أما بانجلترا فإن الهجاء المر و التهكم

المنارة للاستشارات

اللاذع يبلغ ذروته عند ت.س.اليوت فالتيمة الأساسية التي تتردد في شعره،هي ضياع الإنسان في صحراء المدينة الهائلة، المشعة بالإحساس بالزوال و الفناء، المضخمة للشعور بالوحدة و الغربة[5] التي لا تعثر بها إلا على الضجيج المتعالي، والغبار،و أناس ينفثون حسراتهم.

هذه الصورة المفجعة للمدينة لم تقف عند حدود التأثير على موضوعات القصيدة بل تعدتها إلى لغتها، التي أغرقت في الاضطراب و الفوضى، و الميل الواضح إلى التعقيد. فكما هو العالم الطبيعي للمدينة، القصيدة أيضا فقدت الشعور بالارتياح النفسي و الجسدي.

ازدهرت المدينة العربية القيمة في العصر العباسي و الأندلسي فتجلت في الشعر العباسي و الأندلسي فمن العباسي يبرز المتنبي منتصرا للبداوة مفضلا لها على الحضر الذي يرتبط بالتصنع و التكلف،غير أنه لم ينطو على نفسه بل وقع في صدام عنيف مع مجتمع المدينة كلفته شعورا عميقا بالغربة ؛هي غربة فكرية أكثر منها نفسية.

بلغت المدنية بالأندلس فقد ما لم تبلغه في غيرها من الحواضر،فافتتن بها أهلها إذ كانت جنة الخلد كما يقول ابن خفاجة، لارتباطها بالخضرة و العذب من المياه، و نعيم العيش...و لما انقلب الحال و سارت إلى الحروب و غزاها الصليبيون، تحولت إلى موضوع رثاء، فصارت الفردوس المفقود، و انقلب حبها اشتياقا لها،وحنينا جارفا.

بين الأسى و الإعجاب يطفوا موقف سلبي من المدينة الأندلسية، التي غرق أهلها بملذاتها، و اللهو والمجون، حتى تسطحت التجربة الشعرية و خلت من المعاني العميقة، و تبعت الزينةَ الشكلية تماما كالمدينة الأندلسية، هذه الحياة أشعرت عددا من الشعراء بالاغتراب و هم في حضن الوطن الأم فيتكثف الحزن و تتعمق المأساة،ليبرز التشكي طورا،و الانعزال و النفي الذاتي أطوارا أخرى[6]، و قد عبرت الذات الشاعرة عن وعيها بالغربة التي تعيشها في هذه المدن، و حاولت رفع هذا الشعور بالاتجاه إلى النقد الاجتماعي الذي مس في جانب منه هندسة المدينة، فالغزال مثلا يعترض على مظاهر الترف في بناء القبور التي تشبهت أشكالها بالقصور.

المنارة للاستشارات

المدينة موضوع بارز في الشعر العربي المعاصر ، فما من شاعر إلا و أدلى بدلوه فيه، متخذا موقفا منها، أي كان سلبيا أو إيجابيا.هي عند الشعراء النازحين من الريف مرتبطة بالضياع و التوجس. كان الجدارُ أولَ ما عاينه منها السياب، والبياتي،و فاروق شوشة و حجازي، الذي سحقه و خنقه الجدار ليمثل رمزا للمعاناة التي تخلقها المدينة،التي لم تمنحهم الشعور بالارتياح فجاءت في أشعارهم «موسومة بسمات التضايق،فهي حزينة،شاحبة،مؤلمة، وهي صفات نابعة من داخل الشعراء»[7] لا مما تلمح أعينهم من مظاهر ، بل مما انطبع في النفس بعد لقاء المدينة،و سنجد في البدايات الأولى للتطرق لموضوعة المدينة الملامح التي كنا وجدناها عند الشعراء الغربيين، من تبرم بالضجيج و رفض لوسائل النقل السريعة، وتفاقم للفقر، الكثافة السكانية..و غيرها.ثم تتخذ دلالتها منحى أكثر نضجا يبرز أصالة الرؤيا و التشخيص، و يكشف الصراعات الاجتماعية والسياسية والحضارة، كما هو الحال و مدينة سعدي يوسف التي مثلت عالما مزيفا مرعبا "مدينة تتسول النور"، وهي ترتبط بموضوع القهر الاجتماعي عند عبد الصبور، وهي القاهرة الرافضة عند أحلام مستغانمي،وهي المدينة الغابة يأكل القوي فيها الضعيف،إنها القبح و الخوف و الجريمة في قصيدة "في الليل و المدينة و السل" للبياتي. ثم هي التدليس و التزوير عند حمدي بحري، و ربيعة جلطي، و خليل حاوي.

لم تغب الموضوعات السياسية عن المدينة بل إنها كانت سبيلا لطرح موضوعات القهر السلطوي السياسي، ورضوخ الشعوب، و افتقاد الكرامة الإنسانية، و تردي الأوضاع ، و مرة أخرى التدليس والتزوير لكن هذه المرة في علاقة السلطة بالشعب، لا كما تجسد سابقا في العلاقات الاجتماعية، غير أنها لم تأت صريحة بل لبست القناع الأسطوري رمزا مرة ، و التهكم مرة ثانية كما هو الحال و الشاعرة المغربية مليكة العاصمي و هي تصور المفارقات التي تحكم الواقع المغربي.

هذه الموضوعات السياسية و الاجتماعية ارتبطت غالبا بالإحساس بالاغتراب، الذي هيمن على غالبية القصائد المتمحورة حول المدينة، و الذي يرى بعض النقاد أنه لا يعدو كونه تأثرا بشعراء الغرب، في نقمتهم على حضارتهم المادية، في حين تثبت القراءة المتأنية

المنارة للاستشارات

للشعر العربي أن « الوعي المغترب لدى الشاعر العربي المعاصر نابع من محنة ذاتية و واقع قهري، و وعي بالوجود تعيس »[8] و هو يواجه انشطاره بين عالمين العربي المتراجع المتقهقر باستمرار، و عالم يتقدم برؤاه المستقبلية الواعدة،فلا هو متجذر في الأول بسبب رفضه لماضيه و حاضره الذي يظلم و يجوع و يقهر فئة لتنعم أخرى، و لا هو منسجم مع الثاني لأنه الآخر القاهر العدو المستعمر.

3. ثيمة المدينة في شعر منيرة سعدة خلخال

تفر الأبيات في هذا المتن الشعر مبتعدة عن نطاق الحواس حتى و هي تستجلي المدينة ، هذا الفضاء الذي يطوق حواسنا و يحاصرها، فإذا منيرة سعدة خلخال تطوقه بمشاعرها، و سبحاتها في عوالم الروح ، تحاصره بكونها الداخلي لتعيد تشكيل المدينة، فتنقلب مرآة لنفسية الشاعرة ، التي تتقلب بين التفاؤلية ، و التشاؤم ، بين منح الأمان و التيه في الشعور بالغربة، وفق تغير مزاجات الشاعرة، المرتبطة في أحايين كثيرة بمزاج الوطن، الموضوعة اللصيقة غالبا بثيمة المدينة. و إن نحن عدنا إلى الظرف التاريخي ألفينا هذا الوطن هو خالق تلك الحالات النفسية التي سيطرت على عدد من قصائد منيرة سعدة خلخال.

قصائد تتوارى فيها التفاصيل الحسية تماما كما اختفى الجسد، و كأن الشاعرة تؤسس لكتابة نسوية من نمط مغاير، كتابة الروح في تحليقها ..لكن بالأجواء الداخلية للنفس. هي ذي شاعرتنا إذن و هو ذا أيضا موضوعنا الذي حاولنا الإمساك بحدوده الطبوغرافية، و هندسته، فلم نعثر عليها بل وجدنا أنفسنا نعالج الفضاء الجغرافي معالجة الحالة النفسية أن بالشاعرة تثور على المحسوس و تقدم مدينة مغيبة المعالم مكشوفة حضاريا و عاطفيا.

يلاحظ المطلع على أعمال منيرة سعدة خلخال(لا ارتباك ليد الاحتمال 2002، أسماء الحب المستعارة 2004 ،الصحراء بالباب 2006.) هوسا بالمدينة، إذ تواتر لفظة المدينة،حتى أنها تبدو موضوعا رئيسيا،هي بمثابة مركز الثقل الموضوعاتي في أشعار شاعرتنا[9] ، فقد تكررت ست و عشرين (26) مرة بهذه اللفظة، و حضرت في عدد من القصائد باسم المدينة كما تكرر اسم "سيرتا"و هو الاسم القديم لمدينة قسنطينة ثلاث (3) مرات، أما اسمها

المنارة للاستشارات

الحالي فلم يرد سوى مرة واحدة في عبارة مقتبسة، أما اسم "بونة" وهو الاسم التاريخي القديم لمدينة عنابة فذكر مرة واحدة.

تزداد أهمية تواتر الموضوع بإضافة الألفاظ التي تنتمي إلى نفس العائلة اللغوية،تحديدا تلك التي تجمعها بلفظ المدينة قرابة معنوية،من مثل: الجسر المكرر ست(6) مرات و هو أبرز معالم مدينة قسنطينة، المدينة مسقط رأس الشاعرة. و لفظة شوارع التي تكررت خمس(5)مرات، و مثلها لفظة أرصفة، ثم لفظة مكان معرفة و نكرة ذات التواتر الأعلى بثماني (8) مرات.و إن كانت لفظة عامة لا تقتصر فقط على المدينة، مع ذلك فإنها ترتبط بها كما ترتبط بغيرها.

هذه الكثافة في توظيف لفظة المدينة، و ألفاظ من عائلتها اللغوية تجعلنا نصنفها في خانة الموضوعات الرئيسية في شعر منيرة، تلك التي «تشكل هندسته المعمارية غير المرئية، و يمكن أن تزودنا بمفتاح تنظيمها، توجد فيه بصورة متطورة غالباً، وبتواتر واضح واستثنائي. التكرار هنا، وفي أماكن أخرى، مؤشر على الهاجس»[10] الذي لا تكاد تبارحه الشاعرة إلا لتتوسع في مواضيع متفرعة عنه.

تكتسي الكلمة/الموضوع "المدينة" أهمية خاصة في المدونة، فهي تتجاوز كونها موضوع تجربة لتصبح موضوعا و أداة تعبيرية عند شاعرتنا، التي تسقط مشاعرها على مدينتها مرة ، و تستكشف أعماقها ممتطية مدينتها تارة أخرى،فالمدينة عندها وسيلة كشف للأعماق، ثم هي الوعاء الحسي الذي تسكب فيه مأساة وطنها الجريح،وهي جسد لنفْس شاعرتنا التي تبتعد كثيرا عن الكتابة بشرط الجسد كغيرها «مغيبة معالم الأنوثة التي غالبا ما يجسدها الشعر النسوي» [11] و منكفئة على نفسها حتى و هي تكتب الوطن،وحتى و هي تكتب المدينة، الموضوعة التي لا تغيب في قصيدة إلا لتعود و تظهر في التالية، فقد وردت باثنين و عشرين قصيدة من مجموع سبع و خمسين قصيدة،هذا في المدونة كاملة، أما في "الصحراء بالباب" فقد ظهرت بثماني قصائد من أصل أحد عشرة.

المنارة للاستشارات

ww

و هو الديوان الذي يتبلور فيه الموضوع بوضوح، ليمثل نضج التجربة عند شاعرتنا، و انتقالها إلى التعامل الواعي مع موضوعها،تحاصره بمشاعرها و تستجيله حضاريا و فنيا، مع ذلك تبدو المدينة في "أسماء الحب المستعارة" أكثر توسعا في طرق الموضوعات الفرعية، و أعمق إحساسا بها.

تمثل المدينة قالب التجربة عند شاعرتنا التي تسكب مشاعرها و حلم الحب في جسد المدينة، وإن كانت حددتها بالاسم سيرتا، فإنها استعارت لها معالم غريبة عن هندسة المدينة المرجع، لتصبح سيرتا داخل القصيدة فضاء تخييليا منفصلا تماما عن المكان الواقعي، تتوحد به على طريقة شعراء المدرسة الرومانسية، فتخرج في صورة الوفاء :

كي تعرف أن لسيرتا موانئ و أشرعة
و حبات رمل و شمس محرقة
و أصيل متيم
و نوارس لا تهجر إذا جاء المساء شطآنها[12]

فأنّا لسيرتا و هي التسمية التاريخية القديمة لمدينة قسنطينة الشطآن و الأشرعة ، إن لم تكن معالم أوجدتها القصيدة،لتجسد حلم الحب بدوام الوفاء "نوارس لا تهاجر ..." الوفاء الذي يمنح المحبين، وخاصة الطرف الأنثى الإحساس بالأمان المجسد في الموانئ و الأشرعة، ألم تكن الأشرعة ضمان الأمان وفقدانها في السفن القديمة كان الموت المحتم، أما الموانئ فإنها ختام المسير، و أي امرأة لا تتمنى أن يكون حبيبها خاتمة مسيرها،وتقلبها بين مشاق الحياة،لترسو عند الحب ، هكذا تخلق منيرة من معالم المدينة التخييلية جسدا لمشاعرها.

ثم هي تعود في عدد من القصائد لتجتاف صورة مدينتها«و إذا كانت وظيفة الاجتياف امتصاصية على الدوام، مما يجعل الرمز الشعري يدخل بالضرورة في تعالق نصي مع رموز أخرى»[13] فإن قصيدة "الزنزانة 25" (التي لا نحسبها غير قسنطينة) تتناص و عدد من الأعمال الأدبية بدء بأغنية المالوف، إلى رواية الزلزال، فتبعث الشخصية الروائية "بولرواح" و هي الشخصية الرمز التي اختزلت إيديولوجيا الفئة المستغلة، الشخصية التي قطعت شوارع

المنارة للاستشارات

قسنطينة و قدمت قراءة الروائي لها في تلك الفترة، هاهي تبعث في القصيدة، لتحيين أحزان هذه المدينة وتقدم قراءة الشاعرة للمدينة:

و المدينة مقلوبة

عزيز خطبها،أخاذ !

عائم في صقيع الصمت المسنون

خوذة الكرنفال على القلب مشدودة

لتنعم فراشة الروح العنيدة

بجور المكان

....

و من جديد

يعود "بولرواح" مجلجلا صوته

محمولا على رحيق الصدى المهزوم

يستدرج القوالين إلى ساحة الشهداء

عند الزنزانة 25

لمبايعة أبابيل الكلام

ياء الحكمة في وصف النعام

غراب قابيل يدفن هواه

يجتلي تراب السلام[14]

لينفتح موضوع المدينة لدى شاعرتنا متوسعا إلى أكثر من فرع، غير أن هذه الفروع تأتي متشابكة متداخلة. فموضوع الغربة التي تكررت كثيرا عند الشعراء المعاصرين كما مر بنا ،لم تغب عن المدونة لكن باختلاف مرده خصوصية التجربة عند شاعرتنا، التي اتخذت المدينة بؤرة تنطلق منها عدة موضوعات فروع، أهمها الغربة،الخوف،،الحب،الموت،ويضاف إليها

المنارة للاستشارات

الهجر الذي يتكرر بشكل واسع، الهجر الذي يمارسه الحبيب و تمارس المدينة على الأنثى، فتعود و تخلق الإحساس بالغربة

تأتي الموضوعات الفرعية متشابكة متداخلة، يستدعي أحدها الآخر. فالمدينة نفسها تخلق الشعور بالغربة، اللفظ الذي تكرر عشر (10) مرات، بلفظه لتطالعنا الشاعرة بقاموس واسع التكرار لألفاظ تصب في هذا المعنى أهمها " التيه، الضياع، التشتت، الغريب...و غيرها" ناهيك عن العبارات المجازية التي تكني ولا تصرح بالغربة، التي تبدو في قصيدة "عائد إلى جنوني" مزدوجة، فالعائد لم يتوطن بالمكان الذي كان به، والموصوف بـ "عوالم المجهول المستفحلة.." ولا هو كان حقق ذلك بمدينته:

أبشري مدينة السكون

عدت

لم ترمني حدود الغاب

لا، طوعا جئتك

آمل إعادة توطيني [15]

تقترن المدينة في هذه القصيدة بالرجوع بعد غياب، أما في عدد معتبر من القصائد فإن الرحيل هو الموضوع المهيمن الذي تكرر ست عشرة (16)مرة ،خاصة الرحيل المقترن بموضوعة الحب إذ يقترن الاثنان ليخلقا الإحساس بالغربة في مدينة غاب عنها الحبيب،و هنا أيضا تتعدد مفردات معجم هذا الموضوع ؛و منها "الوحدة، الذهاب، الرحيل،التشظي، الاختفاء، الغياب، البون،الزوال، تباعد..." ترد بتكرار كبير، كما تتنازع النص مجموعة من الثنائيات الضدية تفتح الرحيل على احتمال الرجوع منها: رحلوا/عائد، منفاي/توطيني، لا تهجر/ الهجر، انزوت/تعود، غدوك/رواح، غبت/أقبل... غير أن الهيمنة المطلقة من حيث التكرار تبقى للمفردات الدالة على الرحيل،و حتى من حيث المبنى يمكننا ملاحظة الفرق فمثلا في الثنائية الأولى جاء الفعل بصيغة الجمع،أما اسم الفاعل فجاء مفردا،في الثنائية الثانية

المنارة للاستشارات

المكان "المنفى" منسوب إلى المتكلم،في حين توطينه يقوم به غيره لأجله،في الثنائية الرابعة غدوك منسوب إلى الحبيب بينما تسقط كاف المخاطب في الرواح.

يتنوع المعجم المعتمد في موضوعة الحب ذات التواتر الكبير بلفظها حيث تتكرر إحدى و عشرين(21) مرة،غير أن الوحدات المعجمية التي تصب في هذا الموضوع اقل من غيرها فلا نطالع إلا"متيم، العشق، القلب"، مع ذلك تكتسب أهمية خاصة كونها القاعدة التي يبنى عليها موضوع "الهجر أو الرحيل" الذي لا تظهر أهميته إلا في ظل موضوع الحب،غير أن الشاعرة لا تفصل الموضوع، و لا تقدم تجربة الحب، بل تنتقل مباشرة إلى الغياب ورحيل الحبيب و الغربة التي يوقعها بالنفس، لا يقف الشعور بفقد الحبيب عند خلق إحساس بالغربة بل يتعداه إلى خلق حالة من الخوف،و هو الموضوع الذي لا أخاله يرد عند شاعر رجل، لأنه يختص بالمرأة التي يمنحها الحبيب الشعور بالأمان، وفي غيابه، ينقلب الأمان افتقادا للأمان أو "خوفا ورعبا" بتعبير الشاعرة:

كأنك غبت

فجادت المدينة بالطعن،

بوابل من التجريح يكتنزه الصباح الواحد

سريره الجسر

و عند «سيدي راشد» يهوي

على القلب يصفعه

....

و يشقق ظل الأصيل

على تغريبه للسفر

عند بئر الكلام

شوكية سيرة الحب

و الخوف أروع ما تصدح به

المنارة للاستشارات

صحراء في منتهى التعب[16]

لا تقف سيدة المجاز[17] عند التجربة المألوفة بل تفاجئنا بتجربة فريدة، تسلك فيها المدينة دروب الرحيل مخلفة للشاعرة أوزارها، لتطرق التيه ، الخوف،و الوحدة:

عن مدينة تحل بي

توقظ في جرحها الأول

تفرد لي سحنة البجع الرائد

في السفر الكاسر

و النواح

مدينة أعارتني اسمها المكبل بالتيه

و المواويل الحزينة

أجازت لي الوحدة

كل الوحدة..

و اشرأبت بالغياب

لم أكن غير طفلة **يخيفها** الضباب

غير موجة **يرعبها** الليل و السراب

إذ يدنو من سماواتها[18]

على عكس تجربة الحب التي تجيء مقتضبة، رحيل المدينة يسوق تفاصيل تكشف للقارئ هوية المدينة موضوع التجربة فيتعدد المعجم الواصف للمدينة و بتنوعه تكثر الإشارات المرجعية، لترسم وجه المدينة،و انعكاسها على نفس الشاعرة.

تبقى المدينة واحدة سواء في الموضوع الأول (رحيل الحبيب) أو الثاني(رحيل المدينة) و إن كانت الشاعرة لا تذكر اسمها فإنه لا يبدو عسيرا استنتاجه،بتجميع بعض الإشارات المرجعية، مثل الجسور ، سيدي راشد ،الريميس، كلها أماكن من قسنطينة، و إذا أضفنا إليها كناية "الزنزانة 25 "و الاسم التاريخي "سيرتا" لم يبق شك في هوية مدينة الشاعرة، رغم أن

المنارة للاستشارات

ww

اسمها "قسنطينة" لم يرد في هذه الأعمال الشعرية باستثناء مرة واحدة حيث جاء في عبارة مقتبسة ،كأن بالشاعرة غضب على مدينتها يصعّب عليها حتى لفظ الاسم الحالي لها، و يجعلها تحتمي بالاسم القديم مستكينة إليه، يمنحها الإحساس بالأمان الذي فقدته بين شوارع قسنطينة،فلم توقف البحث عن سيرتا، بكل ما هي وسط قسنطينة،لذا تكتب المدينة الماضي بكل ثقلها الحضاري، و لا تلفظ حتى اسم المدينة الحالي، فها هي ترسم المدينة منشطرة بين ما كانت عليه و ما سارت إليه:

تعلقت ببال العمر أسئلة جسور سبعة

توارثت أجيال النسيان أسرار النجمة

أفل المجيء إليها

و شاع الدوار المقصور على غواية السباحة

نصب طموحات "الريميس"

و "سيدي مسيد" يرفع تواشيح البلسم

عن أماني اللواتي تكحلن بماء "النشرة"[19]

في أصداء الزنزانة 25 تتعالى أنات الحسرة على المدينة التي ملكت من الخصوصية و السحر ما أهلها لامتلاك القلوب، فإذا هي اليوم "مقلوبة عزيز خطبها" تأتي الشاعرة على تصوير حالة من اختفاء كل ما كان لقسنطينة خاصية مميزة،الطقوس،القدسي،براءة الأمنيات،و الدعوات،في حين طفت على وجه المدينة نبوءات عمي الطاهر، و هو الروائي الجزائري الطاهر وطار في روايته الزلزال التي تبعث الشاعرة بطلها بولرواح لتجعل منه واجهة مأساة تلملم فجائعها بعبارات مجازية، إلى أن ينقطع نفس الكناية فتصرخ:

من يذكر سيرتا؟

من علمها كل هذا الاختفاء؟

من أخرس الوهج في دقاتها؟

من سمح بتقطير الدفلى في عروقها؟

المنارة للاستشارات

من انتحل زرقة صباحاتها و أدماها؟

ثم من أفناها؟

و أضرم في الكون كل هذا الحريق؟[20]

بتوضيح علاقة الشاعرة بالكلمة – الموضوع "المدينة" يتضح للقارئ سر تكرار ثيمة رحيل المدينة عند الشاعرة،وإحساس هذه الأخيرة بالغربة في مدينة هي ما عادت هي، فقسنطينة المغيبة على مستوى النص اسما الحاضرة مأساة هي سبب تنامي الشعور بالغربة، و الدافع لبحث الشاعرة الدائم عن مدينتها وسط مدينتها. وفي غياب المدينة يطرق الخوف قلب الشاعرة، فتلتفت تفتش عن الأمان، فلا تجده إلا في الذكريات؛ ذكرى مدينة تبدل حالها، وذكرى الحب السالف الذي غاب أيضا و ما عاد من جدوى منه:

-و تنصرف المدينة عني

تحملني صمتها و الغياب

و أنصرف إليّ

تعودني الذكريات

قمم البهاء ..

فأحتمي بالدروب،

ظلك بوصلتي

و لا جدوى منك![21]

في بحثها عن الأمان المفتقد تحيلنا الشاعرة على موضوع فرعي آخر هو الخوف الكلمة التي تتكرر في المدونة سبع(07) مرات،الإحساس الذي يعاود شاعرتنا و هي تفقد مدينتها كما أحسته سابقا و هي تفقد الحبيب، والخلاص أو الاحتماء هو نفسه، إذا تطالعنا في المقطع السابق بأنها تحتمي بالدروب ،في فقدها الحبيب أيضا تلجأ إليها:

آن أن ترحل الآن

إلى عش الحلم المتآكل..

المنارة للاستشارات

ww

إلى حضن الأحرف الأمنية

و آن أن ترتديني الأرصفة و المحطات [22]

كاشفة عن مكانة خاصة جدا تربطها بالمكان فهو الجرح و هو العلاج، بل هو العلاج من كل جرح، يعوضها فقدها، و به تحتمي من الخوف إذ تفقد الإحساس بالأمان في غياب من يحتويها،و يشعرها بالانتماء، هكذا تخلق مدينة منيرة سعدة خلخال الغربة و الخوف بعد أن تعلمت سيرتا الاختفاء لتحل محلها الزنزانة 25.أما المعجم الذي تعتمده في هذا الموضوع فلا يتسع بقدر ما يتكرر فهي تعتمد الخوف والرعب،الفزع الذعر لكن بتكرار كبير.

الموضوع الفرعي التالي هو الموت بأعلى نسبة تواتر حيث تكرر بلفظه خمسا و عشرين مرة،بهذا اللفظ تحديدا، ناهيك عن اقترانه بالمعجم الأكثر اتساعا في مدونتنا هذه و منه " القبر، الميتة، التلاشي، سكاكين، النكبات، الشهداء، الجماجم، يواروتك، انتهيت، ينقض، يدق، يقتلع،جنازة،خوذة،مناورة،يدفن، ألغام، الغدر، الاندثار، الفناء، التوابيت، الاحتضار، الانتحار...وغيرها. موضوع القتل يرتبط بالوطن في صورتين مأساة الجزائر في العشرية السوداء،وبالقضية الفلسطينية.و إن كانت الأولى تحتل مساحة نصية أكبر يتساوى فيها الوطن و المدينة فيغيب ذلك الرفض للمدينة، ليصبح هذا الاتحاد «من دواعي القبول بها، بل إيمانا مطلقا »[23] بها ،فتصف الشاعرة الموت المزروع بالمدينة بأنه لا مشروع،بل إنه:

أهازيج رصاصات طائشة

و تارة مرتبة وفق رزنامة

مهرجان المسدسات المفاجئ؟! [24]

هذا الموت هو بكلمة أدق قتل مرتب معد مسبقا، غير أن برنامجه، لشدة كثافته يشبه الفوضى فيلتبس على الشاعرة،ما بين ترتيب و طيش، أو هو طيش مرتب، في مدينة تغيرت فيها "أسماء الأسماء" و تبدلت الأدوار،وحتى معنى الحب تبدل في اتساع معاني قاعدة الاختلاف رحمة التي لا تتسع إلا على مستوى القول، لأن الفعل لم يكن يشبه الرحمة في

المنارة للاستشارات

شيء، حتى البشرى التي تسوقها الشاعرة للوطن طرأ عليها تبدل الاسم ،و بتعبير الشاعرة استعارت الاسم لا أكثر:

بشرى للوطن
يوارونك خلف الجماجم
كي تحرس أعين الشهداء
ينصبون لك الاختلاف
رحمة
يعيدون حبك
تسجيلا و ذكرى
و أنت الوطن
منهم، إليك، قرابينهم
لا يعبدون سواك
بشراك
وقد جمعهم هواك [25]

بسخرية فيها من المرارة أكثر بكثير مما فيها من التهكم تسرد منيرة للوطن بكل " مدن الضياع" التي تشكله، تسرد له الموت الذي يحل بأبنائه، تحت شعار حبه، حتى صار موتهم قرابين تقدم له.غير أن حقيقة القرابين هذه تتكشف عارية و نحن نتجه صوب موضوع فرعي أخر و هو الظلم الذي يختفي خلف الشعارات البراقة،نجده خاصة مع ذكر القضية الفلسطينية حيث نعثر على تغير في المفردات من أهم مفردات المعجم "يستوطن،الضحايا،الزحف، المدججة ،الوطن المسلوب ،الدمار، الغارات،الغضب، الغصة،السخط، التنكيل. و هو معجم لا يدل على التضحية من أجل الوطن قدر ما يدل على استباحة أهله وظلمهم و"الظلم" هو تحديدا موضوعنا الذي أُنزل بأهل الأرض،بأهل

المنارة للاستشارات

المدن المقدسة، لتتخذ الشاعرة من أسماء الشهداء رموزا تحقق بمرجعيتها دلالات لا يحققها المعجم مهما اتسع:

يعز علينا المقام في الصمت

حكمة تتضاءل، تتهلهل و تتذلل

في زمن الدبابات الفصيحة و هي تهزج ببلاغة التسلل

إلى شرعية التنكيل بأشجار الزيتون

براءة "شهيد"و "ملاك"..

و "أحلام"محمّد"،"فاطمة"،"آيات"و"ميسون" [26]

فإذا كان الصمت حكمة و بلاغة فإنه بفلسطين تحديدا لا يمكن أن يمثل أيّا من كل هذا، لأنه سيجلب الذل و الهوان لأهل الأرض،مع ذلك فإنه واحد من مفردات الثنائيات الضدية التي تحكم الموضوع الفرعي من الدرجة الثالثة،و هو المقاومة لا تتكرر كثيرا بلفظها حيث ظهرت مرتان فقط، معوضة ذلك بالانشطار بين عدد من الثنائيات أهمها: تجلد/الانهزام، مقاومة/تراجع، صمت/صراخ، فرح/قرح، بسمة/ عبرة، ويبقى المعجم زاخرا بعدها بجملة من الوحدات المعجمية منها: التوطن، الأمل،الرجاء،الصفح،الثورة،و لم ندرج الوحدتين الأخيرتين ضمن ثنائية لأنهما برأيي ليستا متضادتين،و يبقى أن الغلبة من حيث التكرار هي للصمت الذي ورد أربعا و ثلاثين(34) مرة،و هو الرقم الذي يعكس وعيا سياسيا كبيرا عند شاعرتنا، وإحساسها العميق بهيمنة الصمت على الواقع العربي،و وقع هذه الهيمنة على هذه الأمة، و إن كانت لا تجاهر بوعيها السياسي بل تخرجه في ثوب مجازي جميل،آخذت برأي جورج لوكاتش الذي يرى أن «الجمال ينقد الإنسان من الانحطاط الإنساني المميز للمجتمع» [27] فهروبا من هول الواقع العربي تعتمد الشاعرة الرمز و تكني و لا تصرح، محلقة في فضاء خاص مازجة موضوعاتها و متشعبة في طرح قضاياها، يحررها تحليقها على أشرعة المجاز من الترتيبات المنطقية الدقيقة فتقرأ إذ تقرأ شعرا.

4. خاتمة:

المنارة للاستشارات

تتوسع المدينة في الأعمال الشعرية لمنيرة سعدة خلخال لتغطي موضوعات إنسانية و قومية متنوعة، أهمها الحب، الرحيل ، الغربة الخوف، الوطن ، المقاومة ،لتخرج عن الصورة التي اصطنعها لها بعض الشعراء المعاصرين، وتلامس وجدان المتلقي، و رغم أن شاعرتنا تخفي ذاتها الأنثى خلف مدينتها، و إلا أن هي المدينة و ما توسعت إليه من موضوعات فرعية، تعري جانبا من أنوثة الشاعرة، التي يتخطفها الضياع أمام هول ما ترى فتفتش عن الأمان .

فإذا كان الجدار معذب الشعراء النازحين من الريف إلى المدينة فإنه الحماية التي تفتش عنها الأنثى، تريدها أسوارا سميكة،تحقق لها المنعة، فتطمئن، لكنها لا تعثر عليها:

فإذا كانت كل الأمكنة المأهولة حقا تحمل جوهر فكرة البيت و هو منح الإنسان الهناءة وألفة المكان، فالمفروض أن تمنح المدينة شاعرتنا هذه الفكرة و تجعلها تحس بالحماية،غير أن المدونة الشعرية تبرز العكس تماما، فيطفوا الإحساس بالخوف،و تغيب الحماية فيشرع الخيال يبني "جدرانا" تقيه هذا الفقد الذي يبدو فضيعا لكثرة تكراره

أما الصانع لهذه الأجواء النفسية التي صنعت بدورها النص الشعري، فإنها جلية في النص ذاته، حيث يستفحل الموت اللامشروع، الموت المباغت للقتلى، المرتب بدقة للقاتل.

– قائمة الإحالات:

1: قادة عقاق،دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر،دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان،منشورات إتحاد الكتاب العرب،دمشق،2001 ،ص 9

2: المرجع نفسه ،ص26

3: المرجع نفسه،ص 94

4: مختار علي أبو غالي،المدينة في الشعر المعاصر،سلسلة عالم المعرفة،الكويت،1995 ،ص 76

5: المرجع السابق ،ص106

6: المرجع نفسه،ص 75

7:مختار علي أبو غالي،المدينة في الشعر المعاصر، ص19

8: قادة عقاق،دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر ،ص 212

المنارة للاستشارات

9: يوسف وغليسي، التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، دار ريحانة، الجزائر،2007 ، ص 51

(10) :ميشيل كولو، النقد الموضوعاتي، تر: غسان السيد، الآداب الأجنبية، ع 93،سنة 1997، اتحاد الكتاب العرب،دمشق، ص106،نقلا عن: جان بيير ريشار، العالم الخيالي لمالارميه.

11:يوسف وغليسي، خطاب التأنيث ،دراسة في الشعر النسوي الجزائري و معجم لأعلامه، محافظة مهرجان الشعر النسوي ، قسنطينة،2008ص312

12:منيرة سعدة خلخال،أسماء الحب المستعارة،منشورات أصوات المدينة،2004،الجزائر،ص33

13:مُحَمَّد جمال باروت،بنية الرمز الديناميكي و دلالاته في شعر خليل حاوي،مجلة نزوى(نسخة إلكترونية)،العدد الرابع، 2009/6/17

14:منيرة سعدة خلخال،الصحراء بالباب،منشورات أصوات المدينة،2006،الجزائر،ص ص 17،18

15: منيرة سعدة خلخال، أسماء الحب المستعارة،منشورات أصوات المدينة، 2004، الجزائر،ص 21

16: منيرة سعدة خلخال، لا ارتباك ليد الاحتمال، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين ، 2002، الجزائر، ص ص 80-82

17: ينظر: يوسف وغليسي ، خطاب التأنيث، ص308

18:أسماء الحب المستعارة ،ص ص .75،76

19:منيرة سعدة خلخال ، الصحراء بالباب، ص11،12

20: المصدر نفسه، ص12

21: منيرة سعدة خلخال، لا ارتباك ليد الاحتمال، ص47

22: منيرة سعدة خلخال، أسماء الحب المستعارة، ص 46

23: مختار علي أبو غالي،المدينة في الشعر المعاصر، ص81

24: منيرة سعدة خلخال،أسماء الحب المستعارة ،ص 91

25: المصدر نفسه،ص 57-58

26: منيرة سعدة خلخال،الصحراء بالباب ،ص48

27:مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال والغتراب، دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة، 1986، ص.130-131.

قائمة المصادر والمراجع

. منيرة سعدة خلخال، أسماء الحب المستعارة،منشورات أصوات المدينة، 2004، الجزائر

. منيرة سعدة خلخال، لا ارتباك ليد الاحتمال، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين ، 2002، الجزائر

المنارة للاستشارات

. منيرة سعدة خلخال،الصحراء بالباب،منشورات أصوات المدينة،2006،الجزائر

. قادة عقاق،دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر،دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان،منشورات إتحاد الكتاب العرب،دمشق،2001

. مجاهد عبد المنعم مجاهد، جدل الجمال و الغتراب، دار الثقافة للنشر و التوزيع،القاهرة ،1986

. مختار علي أبو غالي،المدينة في الشعر المعاصر،سلسلة عالم المعرفة،الكويت،1995

. يوسف وغليسي، التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، دار ريحانة، الجزائر،2007 ، ص 51

. يوسف وغليسي، خطاب التأنيث ،دراسة في الشعر النسوي الجزائري و معجم لأعلامه، محافظة مهرجان الشعر النسوي ، قسنطينة،2008

. ميشيل كولو، النقد الموضوعاتي، تر: غسان السيد، الآداب الأجنبية، ع 93،سنة 1997، اتحاد الكتاب العرب،دمشق

. مُحَمَّد جمال باروت،بنية الرمز الديناميكي و دلالاته في شعر خليل حاوي،مجلة نزوىالعدد الرابع، 2009/6/17: https://www.nizwa.com /

المنارة للاستشارات

ww